حرية الإنسان في القرآن

د. أبو عمران الشيخ*

إذا بحث الدّارس موضوع الحرية الإنسانية في القرآن وجد مجموعتين من الآيات : المجموعة الأولى تشير إلى مسؤولية الإنسان وقدرته على الفعل، والمجموعة الثانية تركز على قدرة الله سبحانه وتعالى، وقد اعتنى بعض العلماء بالمجموعة الأخيرة لأنّها تؤيد ما ذهبوا إليه وأهملوا المجموعة الأولى. والدراسة الصحيحة للموضوع تقتضي

* رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

الاعتناء بالمجموعتين، وهذا المنهج هو الذي اتبعه القدرية ثمّ المعتزلة فيما بعد، ونرى من الضروري اليوم أن نأخذ بعين الاعتبار جميع الآيات التي تتعلق بالموضوع لنميز بين حرية الإنسان من ناحية وقدرة الله من ناحية أخرى، سنحاول أن نقوم بذلك في هذه الدراسة المختصرة.

1. الآيات التي تثبت الحرية الإنسانية

إنّ الإنسان حر في أفعاله إذا كانت في استطاعته. وهو مسؤول مسؤولية كاملة عندما يريد الفعل الذي يقدر عليه. إنّه حر أولا في اعتقاده وفي هذا المعنى جاءت الآية: ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[1] – يدلّ هذا النص على أنّنا قادرون على التمييز بين الإيمان والكفر، وأنّه في إمكاننا أن نختار أحدهما، وتؤيّد آية أخرى نفس المعنى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[2] إنّ الله لا يجبر الناس على شيء: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾[3] ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾[4].

إنّ الله بيّن لنا الطريقين طريق الخير وطريق الشر، كل إنسان مخير في الطريق الذي يريد: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[5] وينقسم الناس في مواقفهم إلى ثلاثة أقسام: ﴿...**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**...﴾[6] يشمل القسم الثاني الذين يفعلون الخير والشر. والقسم الثالث: أهل الخير (الكشاف للزمخشري، تفسير الآية 32 من سورة فاطر). وحسب اختيارنا تستحق أفعالنا إمّا الثواب وإمّا العقاب، والأمر متعلق بنا، فعلينا أن نفضل طريق الخير أو طريق الشر. وقد نبّه الله رسوله إلى أنّه لا يستطيع أن يحمل

---

1. سورة الكهف، الآية 29 ـ **2.** سورة الأحزاب، الآية 72 ـ **3.** سورة الزخرف، الآية 76 ـ **4.** سورة الزخرف ، الآية 37 ـ **5.** سورة البلد، الآية 10 ـ **6.** سورة فاطر، الآية 32.

الناس على أمر: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1]، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[2].

وكيف يمكن أن نميز بين الأفعال الحسنة والأفعال القبيحة؟ علينا أن نستعمل العقل في ذلك لنهتدي إلى طريق الخير، وقد ركز القرآن كثيرا على هذا المعنى، فنكتفي بالآية: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[3] ودعانا الله إلى اعتبار ما وقع للكافرين: ﴿...فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[4] وليس هناك تناقض بين العقل والوحي، بل إنّهما متكاملان، وكلاهما يرمي إلى مصلحة الإنسان، غير أنّ الوحي أعلى درجة من العقل، وهو الذي يبين الطريق إذا عجز العقل عن التمييز بين الحق والباطل، كما تدل على ذلك الآية: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[5] ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[6] ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾[7] وإذا ارتكبنا ذنبا لا يمكن أن نتهم الشيطان: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا..﴾[8] والشيطان سيتبرأ من هؤلاء يوم القيامة: ﴿فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[9].

2. حرية الإنسان وقدرة الله

وقد رأى أهل الجبر أنّ الله خلق أفعال الإنسان وقد اعتمدوا على بعض الآيات التي تؤيد رأيهم وحملوها على ظاهرها دون مقارنتها بالآيات التي تثبت مسؤولية الإنسان واعتقدوا أنّ الإنسان مجبور وأنّه لا يملك شيئا من القدرة على أفعاله وتصرفاته ويحتجون بالآيتين: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[10]

---

1. سورة يونس، الآية 99 ـ **2**. سورة الإسراء، الآية 65 ـ **3**. سورة يونس، الآية 100 ـ **4**. سورة الحشر، الآية 2 ـ **5**. سورة النساء، الآية 165 ـ **6**. سورة النساء، الآية 112 ـ **7**. سورة النساء، لآية 31 ـ **8**. سورة النحل، الآية 99 ـ **9**. سورة إبراهيم، الآية 22 ـ **10**. سورة الصافات، الآيتان 95 و96.

وفي الواقع إنّ الله خلق الإنسان وجعله مسؤولا وإذا قرّر الإنسان أن يعبد ما ينحت فهذا شأنه. ونقول عادة إنّ النجّار يصنع الباب. ومعنى ذلك أنّه يستعمل الخشب ويعطيه صورة معينة لا لأنّه يخلقه من عدم. وهذا ما تشير إليه الآية 96 المذكورة سابقا (الكشاف ج 3، ص 346).

ويستشهد الجبرية أيضا بالآية: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] غير أنّها لا تعني خلق الأفعال، لأنّ الله خلق الكون والإنسان والكائنات ووضع لها قوانين تسير على ضوئها، وإذا اعتقدنا أنّ الله خالق أفعالنا فهل هو خالق الكبائر والذنوب التي نرتكبها؟ وهل يليق بحكمة الله وعدله أن يعاقبنا على أفعال لم تكن لنا مسؤولية فيها؟ ولا يكون العقاب عادلا إلاّ إذا كان الإنسان هو الفاعل حقا لما يفعله، الأمر الذي يقتضي عدم إجباره على أي عمل كان. والقرآن الكريم ينصّ صراحة على أنّ الله لا يظلم أحدا وعلى أنّ الإنسان هو الذي يختار الفعل القبيح بمحض إرادته: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[2] ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[4].

ومن ناحية أخرى وقع بعض الناس في الخلط بين علم الله وقضائه وإن كان المعنى يختلف، إذ الله يعلم كل شيء قبل حدوثه وعلمه أزلي وذلك لا يعني أنّه خلق كل ما يبتلى به الإنسان من مآسي وكوارث إلاّ إذا استحق الإنسان ذلك بحرية اختياره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[5] إذن لا يمكن أن نستخلص من الآية نوعا من التواكل والتكاسل فنقضي على كل فعل حر ومبادرة فردية. وتعتمد الجبرية

---

1. سورة الزمر، الآية 62 ـ 2. سورة فصلت، الآية 46 ـ 3. سورة يونس، الآية 44 ـ 4. سورة النساء، الآية 40 ـ 5. سورة الحديد، الآية 22.

على الآية : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾[1] إنّ الله قد أخبرنا أنّ عددا منهم استحقوا العذاب بسوء تصرفاتهم و لم يقرر ذلك قبل بعثهم ولم يفرض عليهم الآلام إلاّ بعدما خيرهم فاختاروا الأفعال القبيحة. ويتجلى هذا المعنى في الآية: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[2] لم يظهر لهم أيّ خطر في تربية موسى وهو طفل وإن كان الله قد علم ذلك في سابق أزله.

ومن الطبيعي أن يسلّم المـؤمنون أمرهم لله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[3] ولا يعني ذلك أنّ المسلمين فقدوا مسؤوليتهم على أفعالهم، وإلاّ كيف يمكن لله سبحانه وتعالى أن يلومهم على سلوكهم ؟ إنّه من الواضح أنّ الناس مخيرون في الطاعة لأوامر الله أو في التمرد عليها وفي العصيان أيضا فوعدهم الله بالثواب في الحالة الأولى وتوعدهم بالعقاب في الحالة الثانية، والإسلام يعني الرضا بحكم الله والثقة في عدله. ولا يستطيع أحد أن يحملنا على الإيمان إلاّ إذا كان ذلك عن اقتناع ويقين، وقال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[4]. قد يطرح علينا سؤال: متى يهدينا الله ومتى يضلنا؟ إنّ الله يهدينا ويبارك أعمالنا إذا كانت حسنة، ولا يهدينا إذا كانت قبيحة، بل يتركنا في ضلالنا. وهذا ما صرحت به أكثر من آية كريمة : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا﴾[5] ختم الله على قلوبهم بعدما أصروا على المعاصي: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[6] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[7] ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[8].

---

1. سورة الأعراف، الآية 179 ـ 2. سورة القصص، الآية 8 ـ 3. سورة البقرة، الآية 128 ـ 4. سورة البقرة، الآية 256 ـ 5. سورة البقرة، الآية 10 ـ 6. سورة البقرة، الآية 26 ـ 7. سورة فصلت ، الآية 17 ـ 8. سورة محمد، الآية 17.

3. قدرة الإنسان وقدرة الله

يشعر الإنسان بمسؤوليته وهو يدرك أنّ قدرته على الفعل محدودة أمّا قدرة الله تعالى فلا يحدها شيء ولا يمكن لأحد من العباد أن ينافس الخالق في ذلك : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[1] وقدرة الله أزلية وهي فوق كلّ قدرة، أمّا قدرة الإنسان فهي محدثة ومعنى ذلك أنّ الله في إمكانه أن يخلق القدرة في الإنسان أو أنْ يتركه بدون قدرة.

ومن ناحية أخرى إنّ الله يستطيع أن يخلق ما يشاء من عدم وهذا الخلق هو الابتداء، وهو: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2] ولا تراجع أفعاله، أمّا الناس فهم يُحاسَبون عن أعمالهم: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[3] وتبرز القدرة الإلهية في المعجزات التي تظهر على يد الأنبياء ولا يقدر عليها بقية الناس.

ولهذه الأسباب كلها لا يمكن للإنسان أن يتعدى قدرة الله أو أن يبخل بها، قد خلق الله الإنسان وخلق فيه الحركة والإرادة... فأصبح يتحرك ويريد.. لأنّ الله أذن له بذلك. ولا يملك الإنسان من القوة إلاّ ما أتاه الله فالله هو القدير والإنسان ليس مستقلا عن خالقه وإن كانت له بعض الحرية في أفعاله وتصرفاته، فالإنسان ناقص ولا يتغلب على أهوائه إلاّ بمشقة، وقد يغريه الشيطان حتى يصير من الضالين الخاسرين، والله يتصف بالكمال ولا يرغب في شيء والإنسان ضعيف، قلق لا يستقر على أمر: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[4] إلاّ أنْ يتوب ويرجع إلى العمل الصالح، إذا ما قرر ذلك.

1. سورة الأنعام، الآية 18 ـ 2. سورة المؤمنون، الآية 14 ـ 3. سورة الأنبياء، الآية 23 ـ 4. سورة المعارج، الآيات 19 إلى 21.

وهكذا يبين القرآن حرية الإنسان سواء كانت أفعاله حسنة أم قبيحة وليس من الموضوعية أنْ نرمي الإسلام بالتواكل والكسل كما ذهب بعضهم إلى ذلك، هذا أمر أبعد ما يكون عن الإسلام وإن ظهر من حين إلى آخر في المجتمع الإسلامي، ولا سيما في عصور الانحطاط. وإذا تصفحنا تاريخ الإسلام من العصر الأوّل إلى يومنا هذا وجدنا أنّ ازدهار الحضارة الإسلامية كان وليد اجتهاد العلماء والمؤمنين الذين تحملوا مسؤولياتهم وقاموا بواجباتهم الدينية والدنياوية مستهدفين مصلحة الأفراد والأمة والإنسانية جمعاء، وإذا تدبرنا القرآن وتأملناه كما ينبغي فهو أقوى مرشد لنا وأحسن معين في حياتنا الدينية والاجتماعية حتى نضمن لأمتنا العدل والوحدة والقوة.

المراجـــــع

1. راجع تفسير الطبري والرازي والزمخشري والقرطبي وتفسير المنار والقاسمي وابن باديس.

2. محمد عبده، *رسالة التوحيد*، طبعة القاهرة بدون تاريخ.

3. محمد اقبال، *تجديد الفكر الديني في الإسلام*، تعريب محمود عباس، القاهرة 1957م.

4. ابن الجوزي، *تلبيس إبليس*، طبعة القاهرة 1368هـ.

5. ابن القيم الجوزية، *شفاء العليل*، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.

6. ابن تيمية، *منهاج السنة*، دار العروبة، القاهرة 1962م.

7. د. صبحي صالح، *مباحث في علوم القرآن*، دار العلم للملايين، بيروت 1964م.